زميلنا الجاوى بالكويت .. !

معذرة إلى زملائى رجال التعليم بالكويت ، حين يبحثون عن هذا الزميل الجاوى بينهم فلا يجدونه، فما قصدت زمالة المهنة وإنما قصدت زمالة الحياة المنزلية بالكويت . ولا أعتقد أن زملائى المدرسين المصريين الذين تشرفت بالسكنى معهم ، يستنكرون هذه الزمالة ، فهم يعرفون زميلهم السادس كما يعرفون أنفسهم ويقدرون زمالته حق قدرها — وكيف لا تقدر زمالة من يعنى بالغذاء لهم ويقوم بما كانت زوجاتهم وأمهاتهم تقوم به من خدمات! . فلا غرابة ولا ضير إذا قبلوه زميلا لأن الحياة هكذا فرضته عليهم ، ولأن هذا الزميل اكتسب بشخصيته ، فى هذه الفترة القصيرة، هذه الزمالة، فرفعته من طاه بسيط إلى طاه زميل!!

ولعلك الآن أيها القارىء الكريم أكثر تشوقا وتلهفاً لمعرفة هذه الشخصية . أما هيأته فليس لها أى أثر لهذه الشخصية ، وإن كانت لا تعيبه ولا تنتقص من قدره . فهو يبلغ من العمر العشرين ، أسمر اللون طويل القامة ، وأول ما يسترعى النظر فى هيأته هذا الشعر الفاحم اللون الكث والذى يلمع دائماً ، لأن صاحبه يأبى إلا أن يعطيه ، كما يعطى الطهى ، عنايته . ولا تعرف جاويته إلا من هذا الشعر — أما تقاطيع وجهه فقد تغلب عليها ما ورثه من أبيه العربى . وكأنه لم يرث من أمه الجاوية إلا شعرها ، والحق يقال إنه ورث من هذين الأبوين المختلفين جنساً ، أجمل ما فيهما من جمال وحسن .

وأعود بك أيها القارىء الكريم مرة أخرى إلى شخصيته التى أكسبته هذه الزمالة! فهو حكيم تارة وفيلسوف أخرى ، وهو ناقد اجتماعى تارة وزاهد متدين أخرى ! وهو فى كل هذه الحالات لا يتكلف الشخصية التى لا يتقمص فيها فتأتيه الحكمة والفلسفة أو نزعة النقد والزهد وهو يعد الطهى فى سهولة ويسر، وتسعفه لهجته العربية الموروثة حين يريد التعبير عن هذه المعانى والأحاسيس فتخرج الحكمة فى صوغ مقبول وتسمع على لسانه النقد فى عربية فحة ! . وهو إذ يكون ناقداً لأحد أفراد الأسرة ، أو الزمالة ، لا يثنيه عن عزمه مركزه فى البيت كطاه ولا يتقيد بدرجات الحياة وإنما يخرج النقد كالسهم المارق .

قال الزميل اللغوى الدينى مرة وهو يصب الماء على يدى « كم عمر الأستاذ اسماعيل ؟ »

قلت : « ربما السادسة والعشرين »

قال : « وما عمرك ؟ »

قلت : « الثانية والأربعين » ثم أردفت ذلك بسؤاله : « وكم تقدر سنى لو لم تكن تعلم ؟ »

قال : « الثلاثين فقط » !.

وهنا تغلبت عليه الناحية الفلسفية فيه فقال ما معناه « ليس مقياس الصحة الأعمار فقد تظهر للناس ابن الثلاثين وأنت حقيقة ابن الخمسين » .

قلت : « نعم فللأحداث دخل فى تعجيل الهرم ، وللهناءة دخل فى تأخيره » .

وهنا تغلبت عليه الناحية الدينية ، فقال - وهو لا يزال يصب الماء مامعناه - « إن مرد كل شىء يحدث للانسان إلى الله سبحانه وتعالى » فأيدته فى القول ولا يزال على لسانى كلام باق أود أن أتممه .. ولقد فاتنى أن أذكر لك أنه استعمل فى كلامه كلمة غريبة عنى إذ قال « إنك قد ترى ابن الخمسين وهو لا يزال فى رجولة كاملة. تراه رغم ذلك «يخربط» .

فقلت : وما معنى « يخربط » ؟! . قال : « يخربط » ... فقلت : « أو عجزت يا سيد أن تفسر لى الكلمة بأخرى توضحها ؟ » — فهاله منى أن أعيب عليه وأقف على نقطة ضعف فيه فانتظر قليلا وهو يتأمل فى « طقم أسنانى » الذى كنت لا أزال أغسله — كأن طقم الأسنان قد ألهمه الإجابة — قال « ألم تقرأ قوله تعالى (ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً) فهذا معنى «يخربط» . فقلت : إذاً تقصد « يخرف » ثم أنهيت الغسيل وأنا أتأمل فى نفسى هذا الرد الجميل المقتبس من القرآن الكريم والذى يؤدى المعنى فى أفصح بيان وأجمل أسلوب .

ثم أعود بك أيها القارىء الكريم إلى تعليقه الجميل فى كل ما يحدث لأسرتنا الصغيرة — فقد تعودت أذناه أن تسمعا معظم أحاديثنا التى تكون عادة فى شكل جدل حاد ترتفع فيه أصواتنا إلى حد غير مألوف نوعاً ما . ولكنه رغم ما تعوده منا لا يفوته التعليق — ولقد أحببنا منه جميعاً ذلك وربما طلبناه فى كل حادث ليعلق عليه ، فإذا انتهى من تعليقه انطلقنا بالضحك وربما يكون هذا الزميل سبب

تفريج أزمة النقاش الحاد فى معظم الأحيان ويكون تعليقه المستطاب كالفاكهة فى آخر الأكل يستعذبها الآكل ويتخلص بحلوها من ملوحة الأكل ، ولا مبالغة إذا قلت إن شجرة هذه الفاكهة دائماً هو هذا الزميل الجاوى .

صحوت يوماً لصلاة الفجر وبدأت كالعادة أستحث الزملاء للصلاة فأبى عليهم شيطانهم ذلك اليوم ، وهالنى ذلك فعرجت على الزميل الطاهى أستطلع منه خبر هذا التكاسل الذى لم أتعوده من الزملاء فى الصلاة . فقال على الفور — وهو لا يزال فى أسر النوم وقيوده قال «إن النحاس باشا هو السبب !!» فأدهشنى منه هذا الرد وقلت فى نفسى لعله لأول مرة تخونه فلسفته أو منطقه فقلت «وما علاقة النحاس باشا بهذا النوم ؟» فأراد أن يخرجنى من هذه الدهشة فقال بعد أن اعتدل «إن الزملاء يا أستاذ صالح ، أخذوا يتصايحون طول الليل ، وأنا أسمعهم من حجرتى وكنت كلما أردت أن أقف على أمرهم وما ينسيهم نومهم كنت فى كل مرة أسمع اسم «النحاس باشا» يتردد على ألسنتهم لانه كان محور نقاشهم !!» وما كان فى مقدورى أن أفهم هذا من تعليقه لأول مرة ولكننى فهمت بعد ذلك كيف كان النحاس باشا هو السبب فى تأخيرهم فى النوم وفوات فرصة الصلاة فى وقتها !.

ولعلك أيها القارىء الكريم فى شوق أيضاً ولهف لمعرفة ناحية من نواحى قوة الشخصية فى هذا الزميل ، فهو معتد برأيه أيما اعتداد ، وقد يميل به هذا الاعتزاز بالرأى إلى شىء من العناد العنيف . وهذا الاعتداد — أو العناد إن شئت — قد دفعه مرة إلى أن يتدخل فى عملى ويدلى فيه برأى خاص . ولم يكلفه ذلك تفكير أو تدبير ! بل أدلى به فى سهولة ويسر . لقد عتبت عليه مرة وطلبت منه أن يسرع دائما فى إعداد طعام الإفطار فى وقت مبكر وقلت له : «ألا تعلم أن مدير المدرسة من واجبه أن يحضر طابور الصباح ويشرف عليه ؟» قلتها وأنا فى صدد تنبيهه لإعداد طعام الإفطار دون أن أنتظر أنه سيوجهنى فى عملى أو يدلى فيه برأى ! فرد على كالواثق بما يقول «ومن قال لك يا أستاذ إن المدير لابد له أن يحضر طابور الصباح ؟» فذهلت لهذا التدخل حتى فى العمل وقلت متجملا بالصبر : «ومتى إذاً يكون ميعاد ذهاب المدير إلى مدرسته فى الصباح ؟» قال : «إنه لا يضيره أن يتأخر عن الطابور فللطابور من يشرف عليه من الأساتذة» . فهبت لساعتى وقلت : لقد آن للزميل أن يتدخل فى عملى . وتركنى وأنا فى غمرة التفكير بعد أن أفلح فى الإفلات من نقدى له على تأخير طعام الإفطار واستطاع بلباقته أن ينقذ نفسه من وطأة العتب وصرفنى للتفكير فى إجابته التى أنستنى لومه .

والزميل السادس أيها القارىء الكريم يجمع فى بعض الأحيان بين الحكمة والبلاغة فى التعبير ، فأنت إذ ذاك فى حيرة من حكمته وبلاغته ، وأنت إذ ذاك تلبسه ثوب الحكيم البليغ رغم أنف الفوارق المادية بينك وبينه . وإليك حادثا بسيطاً على مثال التدليل لا الحصر :

لقد كان زميلان من الأسرة يوما بجانب «سيد» فى المطبخ أو بعيداً عنه قليلا ، وكنت بجانبه أساعده فى إعداد الطعام وإذا بالنشوة تستولى على الزميلين وتخرجهما بخيالهما من الكويت إلى القاهرة . فابتدآ معاً وفجأة فى سكون الصباح وهدأة الحجرة ينشدان نشيداً لأم كلثوم . وكم يعيش الإنسان فى الكويت فى أوقات فراغه فى القاهرة أو فى بلده مع أهله وأبنائه ، وكم يسعد بهذا الخيال وكم يأنس كثيراً حين يفكر بعقله الباطن وكم للعقل الباطن من أسرار دفينة لا يظهرها إلا حين يغفل العقل الواعى .

مهلا أيها القارىء فإنك الآن فى شوق لمعرفة موقف هذا الزميل من النشيد المفاجىء — لقد التفت اليهما بكل هدوء ورزانة فسألاه لم يلتفت ؟ فرد عليهما بجملة واحدة كلها إعجاز . قال لهما : «الحمد لله» . فاستحثاه ليعرفا لم يحمد الله فى ذلك الموقف . فلم يثنه هذا الإلحاح من أن يجيب نفس الإجابة .

ولعلك أدركت الآن لم حمد الله هذا الحكيم البليغ فلا تفوتك النكتة الخفية فى هاتين الكلمتين ، لأنه طبعا حمد الله الذى حفظ عليه عقله !

ولا أستطيع فى مثال واحد أن أرسم لك صورة صحيحة عن هذه الشخصية التى حلت فى قلوبنا محل الإجلال والإكبار — هذه الشخصية التى إن دلت على شىء فإنما تدل على أن فى زوايا النسيان والإهمال كنوزاً دفينة ينقصها التنقيب ، وعلى أن فى الأرض بذوراً فى حاجة إلى الرى والسقى لتصبح أشجاراً ذات ظلال وارفة ، وتؤتى ثماراً يانعة . وأن الذكاء حين وهبه الله للناس لم يقصره على ساكنى القصور والناطحات ، وإنما جعل للأكواخ نصيباً موفوراً منها .

وما زميلنا الجاوى إلا علماً من أعلام النبوغ ساكنى الأكواخ ! !...

صالح جمال محمد

ناظر المدرسة المباركية الثانوية بالكويت